

السمات والخصائص العامة للتجربة الصوفية

السؤال الذي يطرح نفسه في البداية هو ، ما هو التصوف ، وما هي الخصائص العامة التي اذا وجدت في فلسفة من الفلسفات صح من جانبنا أن نصفها بأنها صوفية؟ نقول - بصفة مبدئية - اجابة عن هذا السؤال ، ان التصوف بوجه عام فلسفة حياة وطريقة معينة في السلوك يتخذها الانسان لتحقيق كماله الاخلاقي . وعرفانه بالحقيقة . وسعادته الروحية .

على أن كلمة تصوف ، وان كانت من الكلمات الشائعة ، الا أنها في نفس الوقت من الكلمات الغامضة التي تتعدد مفهوماتها وتباين أحيانا . والسبب في ذلك أن التصوف حظ مشترك بين ديانات وفلسفات وحضارات متباينة في عصور مختلفة . ومن الطبيعي أن يعبر كل صوفي عن تجربته في اطار ما يسود مجتمعه من عقائد وأفكار . ويخضع تعبيره عنها أيضا لما يسود حضار عصره من اضمحلال أو ازدهار .

ويبدو أن التجربة الصوفية واحدة في جوهرها ، ولكن الاختلاف بين صوفي وآخر راجع أساسا إلى تفسير التجربة ذاتها المتأثر بالحضارة التي ينتمي إليها كل واحد منهما . وقد حاول بعض الباحثين المحدثين أن يحددوا الخصائص العامة المشتركة بين أنواع التصوف المختلفة ، ومن هؤلاء عالم النفس الأمريكي وليام جيمس فقد ذهب إلى أن أحوال التصوف تتميز بأربع خصائص هي ،

١ - أنها أحوال ادراكية . اذ تبدو لأصحابها على أنها حالات معرفة . وأنه يكشف لهم فيها عن حقيقة موضوعية . وأنها بمثابة الالهامات . وليست من قبيل المعرفة البرهانية . ٢ - وهي أيضا أحوال لا يمكن وصفها أو التعبير عنها - لأنها أحوال وجدانية . وما كان كذلك يصعب نقل مضمونه للغير في صورة لفظية دقيقة . ٣ - وهي بعد ذلك أحوال سريعة الزوال . أي لا تستمر مع الصوفي لمدة طويلة . ولكن أثرها ثابت في ذاكرة صاحبها على وجه ما . ٤ - وهي أخيرا أحوال سائلة من حيث أن الانسان لا يحدثها بارادته . اذ هو في تجربته الصوفية يبدو كما لو كان خاضعا لقوة خارجية عليها تسيطر عليه .

وهناك باحث آخر هو بيوك . يحدد سبع خصائص لأحوال التصوف وهي (٧) ،

١ - النور الباطني الذاتي ٢ - السمو الاخلاقي ، ٣ - الاشرار العقلي ، ٤ - الشعور بالخلود ، ٥ - فقدان الخوف من الموت ، ٦ - فقدان الشعور بالذنب ، ٧ - المفاجأة .

ويمكننا القول ان هذه الخصائص العامة التي ذكرها كل من جيمس وبيوك للتصوف موجوده في معظم أنواعه . ولكنها ليست شاملة . فهناك خصائص اخرى لا تقل في أهميتها عن تلك التي ذكرها كالشعور بالطمأنينة أو سعادة النفس أو الرضا . والشعور بالفناء التام في الحقيقة المطلقة والشعور بتجاوز المكان والزمان . وغير ذلك مما نجده لدى الصوفية .

على أن شمة محاولة أخرى لحصر الخصائص الفلسفية للتصوف نجدها عند برتراند رسل . ذلك أن قد انتهى من تحليله لأحوال التصوف إلى القول بأن أربع خصائص تميز التصوف عن غيرها من الفلسفات في كل العصور وفي كل أنحاء العالم . وهي ،

أولا ، الاعتقاد في الكشف أو البصيرة منهجا في المعرفة . مقابلا للمعرفة التحليلية الاستدلالية .

والقسمة ثانيا ، الاعتقاد في الوحدة (الوجودية) ، ورفض التضاد ، أي كانت صورهما ، ثالثا ، ان □ ار حقيقة الزمان .

رابعا ، الاعتقاد أن الشر محض شي ظاهري ، ووهم مترتب على القسمة والتضاد ، اللذين يحكم بهما العقل التحليلي .

ومن الملاحظ أن الخاصية الاولى التي يذكرها رسل ، وهي الاعتقاد بأن الكشف ، أو الادراك المباشر الوجداني ، هو المنهج الصحيح للمعرفة ، عامة بين الصوفية على اختلاف مذاهبهم وعصورهم أما الخصائص الثلاث الاخرى فهي تصدق على الصوفية القائلين بوحدة الوجود فقط وليس كل الصوفية قائلين بهذا المذهب وقد حاولنا من جانبنا أن نثبت للتصوف بوجه عام خمس خصائص نفسية واخلاقية وابستمولوجية . نرى أنها أكثر انطباقا على مختلف انواع التصوف ، وهي ،

الف - الترقى الاخلاقي ، فكل تصوف له قيم اخلاقية معينة ويهدف الى تصفية النفس من أجل الوصول الى تحقيق هذه القيم ، وهذا يستتبع بالضرورة مجاهدات بدنية ورياضات نفسية معينة ، وزهد في ماديات الحياة ، وما الى ذلك .

ب - الفناء في الحقيقة المطلقة ، وهو أمر يميز التصوف بمعناه الاصطلاحي الدقيق ، والمقصود بالفناء هو أن يصل الصوفي من رياضاته الى حالة نفسية معينة لا يعود يشعر معها بذاته أو بانيتها ، كما يشعر ببقائه مع حقيقة أسمى مطلقة ، وأنه قد فتيت إرادته في ارادة المطلق . وهنا قد ينطلق بعض الصوفية الى القول بالاتحاد بهذه الحقيقة ، أو أنها حلت فيهم ، أو أن الوجود واحد لا كثرة فيه بوجه ما ، وقد لا ينطلق بعضهم الى القول بمثل هذه الآراء في الاتحاد أو الحلول أو وحدة الوجود ، وإنما يعودون من فتائهم الى اثبات الاثنينية أو الكثرة في الوجود وعلى هذا تكون خاصية الفناء منطبقة على صوفية الوحدة وغيرهم من الصوفية الذين لم يقولوا بها .

ج - العرفان الذوقي المباشر ، وهو معيار ابستمولوجي دقيق يميز التصوف عن غيره من الفلسفات ، فإذا كان الانسان يعتمد الى اصطناع مناهج العقل في فلسفته لادراك الحقيقة فهو فيلسوف ، أما اذا كان يؤمن بأن وراء ادراكات الحس واستدلالات العقل منمجا آخر للمعرفة بالحقيقة يسميه كشافا أو ذوقا ، أو ما شابه ذلك من التسميات ، فهو في هذه الحالة صوفي . بالمعنى الدقيق للكلمة ، وهذا الكشف الذي يذهب اليه الصوفية برهى أو آني فهو سريع الزوال ، وهو أشبه شيء بالومضة السريعة المفاجئة .

د - الطمانينة أو السعادة ، وهي خاصية مميزة لكل أنواع التصوف ذلك أن التصوف يهدف الى قهر دواعي شهوات البدن أو ضبطها ، واحداث نوع من التوافق النفسي عند الصوفي ، وهذا من شأنه أن يجعل الصوفي متحررا من كل مخاوفه ، وشاعرا براحة نفسية عميقة ، أو طمانينة ، تتحقق معها سعادته وقد أشار الصوفية كذلك إلى أن الفناء في المطلق والمعرفة به يحدثان في نفس الانسان سعادة لا توصف .

هـ - الرمزية في التعبير ، ونعني بالرمزية هنا أن لعبارات الصوفية عادة معنيين ، أحدهما يستفاد من ظاهر الالفاظ ، والآخر بالتحليل والتعمق وهذا المعنى الاخير يكاد يستغلق تماما على من ليس بصوفي وصعوبة فهم كلام الصوفية أو ادراك مراميهم ، راجع الى أن التصوف حالات وجدانية خاصة يصعب التعبير عنها بالفاظ اللغة ، وليست شيئا مشتركا بين الناس جميعا . ولكل صوفي طريقة معينة في التعبير عن حالاته ، فالتصوف اذن خبرة ذاتية ، وهذا يجعل من التصوف شيئا

قريبا من الفن ، خصوصا وأن أصحابه يعتمدون في وصف أحوالهم على الاستبطان الذاتي أساسا ، وأى فلسفة هذا شأنها يصعب فهمها على الغير ، ومن هنا توصف بأنها رمزية .

على أنه يجب أن يوضع في الاعتبار أن هذه الخصائص الخمس انما تصدق بالنسبة لاي تصوف في صورته الناضجة أو الكاملة ، اذ التصوف في أي حضارة قد يمر بمراحل مختلفة من التطور ، وعندئذ قد تنطبق بعض تلك الخصائص على بعض هذه المراحل دون البعض الآخر ، كما هو الشأن في التصوف الاسلامي مثلا في مراحل الاولي ، وكما سيتبين لنا فيما بعد ولعله يمكن الآن ، بعد أن عرضنا للخصائص الخمس التي رأينا أنها تميز جميع أنواع التصوف ، أن نضع تعريضا للتصوف اشمل من ذلك الذي ذكرناه له من قبل ، فنقول ،

التصوف فلسفة حياة تهدف الى الترقى بالنفس الانسانية اخلاقيا وتتحقق بواسطة رياضيات عملية معينة تؤدي الى الشعور في بعض الاحيان بالفناء في الحقيقة الاسمي ، والعرفان بها ذوقا لا عقلا ، وثمرتها السعادة الروحية ، ويصعب التعبير عن حقائقها بألفاظ اللغة العادية لانها وجدانية الطابع وذاتية.